بعض صفات أهل الكتاب وموقفهم من الإسلام والمسلمين
كما جاء في القرآن الكريم

د. عبد اللطيف هائل ثابت

بعض صفات أهل الكتاب وموقفهم من الإسلام والمسلمين كما جاء في القرآن الكريم

د. عبد اللطيف هائل ثابت

كلية التربية – جامعة صنعاء

مقدمة البحث :

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستهديه ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلن تجد له وليا مرشدا.

وبعد:

فإن الله سبحانه وتعالى هو الذي خلق الخلق جميعا ويعلم سرهم ونجواهم ويعلم ما في الصدور وهو الذي يعلم ما يصلح للإنسانية في كل زمان ومكان، وقد بين ذلك للأمة في كتابه العزيز بأوضح أسلوب وأتم بيان . وأوضح في كتابه العزيز. موقف أهل الكتاب من الحق وأهله قديما وحديثا ومستقبلا فمن أخذ بما بيّن الله فاز ونجا في الدنيا والآخرة. ومن أراد أن يغير من تلك الحقائق التي اخبرنا الله عنها خاب وخسر في الدنيا والآخرة، ولن يتغير من تلك الحقائق شئ ، فالله هو العليم بعباده: ((ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير)) وفي هذا البحث سأبين موقف أهل الكتاب من الإسلام والمسلمين على ضوء ما أخبرنا الله به في كتابه العزيز.

خطة البحث :

يتكون البحث من مقدمة وثلاثة فصول وخاتمة.

المقدمة:

وقد بينت فيها أن ما أخبرنا الله عنه من موقف أهل الكتاب من الإسلام والمسلمين لن يتغير ولن يتبدل.

الفصل الأول: موقف أهل الكتاب من الإسلام والمسلمين، وفيه خمسة مباحث.

المبحث الأول: نبذهم للحق.

المبحث الثاني: تحريفهم لكتب الله عن علم.

المبحث الثالث: أهل الكتاب ليسوا على شئ من الحق .

المبحث الرابع : إفسادهم في الأرض.

المبحث الخامس: سعيهم لإطفاء نور الله في الأرض.

الفصل الثاني: موقفهم من المسلمين وفيه خمسة مباحث.

المبحث الأول: حسدهم للرسول والمسلمين.

المبحث الثاني: مخاطبتهم للرسول بما فيه تمويه.

المبحث الثالث: سعي أهل الكتاب لخداع المسلمين وتضليلهم وإغراقهم في الشهوات.

المبحث الرابع: صدهم المسلمين عن الطريق المستقيم.

المبحث الخامس: عدم رضاهم عن المسلمين حتى يتبعوا أهواءهم .

الفصل الثالث: حربهم للمسلمين وفيه خمسة مباحث.

المبحث الأول : حرصهم على أن يوقعوا المسلمين في مشاق الأمور.

المبحث الثاني: عداوتهم وإيذاؤهم للمسلمين.

المبحث الثالث: استحلالهم لأموال المسلمين.

المبحث الرابع: تعاونهم مع المشركين في الحرب ضد المسلمين.

المبحث الخامس: تعاونهم مع المنافقين في الحرب ضد المسلمين.

الفصل الأول

موقف أهل الكتاب من الإسلام وفيه خمسة مباحث

المبحث الأول: نبذهم للإسلام.

قال تعالى :((ولما جاءهم رسول من عند الله مصدق لما معهم نبذ فريق من الذين أوتوا الكتاب كتاب الله وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون)) البقرة ١٠١

أي ولما جاءهم محمد ﷺ مصدقا للتوراة وموافقا لها في أصول الدين ، ومقـــرراً لنبوة موسى عليه السلام، فطرح أحبارهم وعلماؤهم التوراة وأعرضوا عنها بالكلية ، لأنها تدل على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم فجحدوا وأصروا علـــى إنكـــار نبوته، كأنهم لا يعلمون من دلائل نبوته شيئا ، واقبلوا على تعلم السحر وأتباعـــه ولهذا أرادوا كيداً، برسول ﷺ وأرادوا أخذه بالسحر ، فهم يتركون الحـــق مـــع علمهم أنه حق ، ويأخذون بالأباطيل مع علمهم ببطلانها.

وقوله تعالى (ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلا)- سورة النساء٥١-.

أعيد التعجب من اليهود الذين أوتوا نصيبا من الكتاب بما هو أعجـــب مـــن حالهم الذي مر ذكره في قولـــه (ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يشترون الضلالة) فإن إيمانهم بالجبت والطاغوت ،وتصويبهم للمشركين ، تباعد منهم عـــن أصول شرعهم بمراحل شاسعة على مالا خير فيه وقد نقل عن ابن عباس في معنى الجبت: أنه الساحر،والطاغوت: أنه الكاهن وروي عن مالك أن الطاغوت:ما عبد

من دون الله، والجبت: الشيطان. وقيل: هما كل معبود من دون الله أو مطاع في معصية الله(١).

وسبب نزول هذه الآية ما رواه الإمام أحمد عن ابن عباس قال : لما قدم كعب بن الاشرف مكة قالت قريش : ألم تر إلى هذا القنبور(٢) المنبتر من قومه يزعم أنه خير منا ، ونحن أهل الحجيج ، وأهل السدانة ، وأهل السقاية ، قال : أنتم خير، قال فنزلت فيهم :(إن شانئك هو الابتر) ونزل (ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت) إلى قوله (نصيرا) قوله (أولئك الذين لعنهم الله) الإشارة إلى اليهود الذين أوتوا نصيبا من الكتاب . وقوله (لعنهم الله) أي طردهم عن رحمته ، وأحل عليهم نقمته.

قوله (ومن يلعن الله فلن تجد له نصيرا) أي لن تجد من ينصره، ويدفع عنه ما نزل به من عذاب الله لا في الدنيا ولا في الآخرة.

قوله تعالى(يا أهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله وأنتم تشهدون ، يا أهل الكتاب لم تلبسون الحق بالباطل وتكتمون الحق وأنتم تعلمون) –آل عمران ٧٠-٧١-.

الاستفهام إنكاري ، وفيه توبيخ لليهود والنصارى ، والمراد بالآيات : المعجزات المنزلة على محمد ﷺ.

وقوله (وأنتم تعلمون) أي وأنتم تعلمون أن ما نزل عليه هو الحق.

---

(١) فتح البيان في مقاصد القرآن ١٤٦/٣.
(٢) أي الرجل الفرد الضعيف.

وليس الحق بالباطل: تلبيس دينهم بما أدخلوا فيه من الأكاذيب، والخرافات والتأويلات الباطلة حتى ارتفعت الثقة بجميعه.

وكتمانهم الحق: يحتمل أن يراد به كتمانهم نبوة محمد ﷺ ويحتمل كتمانهم ما في التوراه والإنجيل من الأحكام التي أماتوها و لم يعملوا بها ، وهم يعلمونها ولا يعملون بها([1]) ولا تنافي بين القولين.

قال سيد قطب رحمه الله :(وهذا الذي ندد الله به –سبحانه– من أعمال أهل الكتاب حينذاك ، هو الأمر الذي درجوا عليه من وقتها حتى اللحظة الحاضرة .. فهذا طريقهم على مدار التاريخ.. اليهود بدأوا منذ اللحظة الأولى ، ثم تابعهم الصليبيون، وفي خلال القرون المتطاولة.. دسوا– مع الأسف– في التراث الإسلامي ما لا سبيل إلى كشفه إلا بجهد القرون ! ولبسوا الحق بالباطل في هذا التراث كله – اللهم إلا هذا الكتاب المحفوظ الذي تكفل الله بحفظه أبد الآبدين – والحمد لله على فضله العظيم([2]))

المبحث الثاني: تحريفهم لكتب الله عن علم

قال سبحانه (**وإن منهم لفريقا يلوون ألسنتهم بالكتاب لتحسبوه من الكتاب وما هو من الكتاب ، ويقولون هو من عند الله وما هو من عند الله ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون**) -آل عمران ٧٨- اصل "اللَّي" الفتل والقلب ، من قول القائل :(لوى فلان يد فلان) إذا فتلها وقلبها.

---

[1] انظر تفسير ابن عاشور ٣/ ٢٧٦.
[2] في ظلال القرآن ١/ ٤١٤.

وفريق من أهل الكتاب من اليهود والنصارى ، يسلكون مسلك التضليل، ويلوون ألسنتهم بالكتاب ، أي يميلونه ويحرفونه عن المقصود ، وهذا اللّي والتحريف شامل لألفاظه ومعانيه، والمقصود من إنزال الكتب أن يحفظ ألفاظها ، ويفهم المراد منها، ولكن فريقا من اليهود والنصارى عكسوا القضية ، وحرفوا الألفاظ، وأفهموا غير المراد من الكتاب، إما بالتعريض ، في قوله : (لتحسبوه من الكتاب وما هو من الكتاب) أي يوهمونكم أنه هو المراد من الكتاب، وليس هو المراد.

وإما بالتصريح في قوله(ويقولون هو من عند الله وما هو من عند الله) و لم يكن فعلهم هذا ناتجا عن نسيان ، أو تأويل وإنما يتعمدون التحريف والتضليل عن علم، وينسبونه إلى الله وهم يعلمون أنهم كاذبون ، يفعلون كل ذلك ليتوافق مع شهواتهم ورغباتهم، وينفون صفات محمد ﷺ ليبقوا على رياساتهم ومناصبهم.

قوله تعالى (من الذين هادوا يحرفون الكلم عن مواضعه ويقولون سمعنا وعصينا واسمع غير مسمع وراعنا ليا بألسنتهم وطعنا في الدين ولو أنهم قالوا سمعنا وأطعنا واسمع وانظرنا لكان خيرا لهم وأقوم ولكن لعنهم الله بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلا)النساء-٤٦-.

قوله (من الذين هادوا يحرفون الكلم عن مواضعه) فيه قولان:

١- أن اليهود كانوا يسألون رسول الله ﷺ عن الشيء، فإذا خرجوا حرفوا كلامه.

٢- تبديلهم كلام الله في التوراة، ويفسرونه بغير مراد الله قصداً و عمداً . ولا تنافي بين القولين ، فاليهود قد فعلوا ذلك كله.

قوله (ويقولون سمعنا وعصينا) أي يقولون لك إذا دعوتهم للإيمان: سمعنا قولك وعصينا أمرك ، وهذا أبلغ في الكفر والعناد.

قوله (واسمع غير مسمع): أي اسمع لا أسمعك الله ، يقولون ذلك استهزاء منهم واستهتارا بنبي الإسلام – لعنهم الله-.

(وراعنا ليا بألسنتهم وطعنا في الدين)

راعنا في اللغة العربية: من المراعاة ، وهي : التمهل والتأني واستعملها اليهود : من الرعونة ، وهي الخفة والطوج، وقيل : بمعنى: أسمع لا سمعت ، وقيل غير ذلك.

فهي كلمة تدل على السب . وكان اليهود يستعملون من الكلام ما فيه تورية، ويقصدون به سب الرسول ﷺ، فبين الله قصدهم وفضحهم ، ونهى المسلمين عن استعمال كلامهم فقال:

(يا أيها الذين آمنوا لا تقولوا راعنا وقولوا انظرنا) .

(انظرنا) أي أمهلنا حتى نفهم ما تقول ونحفظ ، أمرهم أن يقولوا من الكلام ما يدل على المراد بوضوح، وليس فيه تورية ولا احتمال لما في مقاصد اليهود الخبيثة.

وقوله (ليا بألسنتهم وطعنا في الدين) أي يُميلون الكلام إلى ما في قلوبهم من السب ، ويطعنون بالرسول بقولهم: لو كان نبيا لعلم أنا نسبه ، فأطلع الله نبيه ﷺ على قولهم. وهذا خلق اليهود ودأبهم في كل زمان فبالأمس القريب يأتون

بمصطلح "الجندر" ، ثم يفسرونه على حسب شهواتهم، واليوم يأتون بمصطلح "الإرهاب"، ولا يضعون له ضابطا ، ثم يفسرونه على حسب ما يرغبون . وهكذا.

قوله (ولو انهم قالوا سمعنا واطعنا واسمع وانظرنا لكان خيرا لهم وأقوم)

أي لو أنهم قالوا : سمعنا قولك وأطعنا أمرك بدلا من قولهم (سمعنا وعصينا) ، (واسمع) أي ما نقول ، بدل قولهم : (واسمع غير مسمع) (وانظرنا) أي أمهلنا حتى نفهم ما تقول ونحفظ. بدل قولهم (راعنا) . لكان هذا الكلام أولى وأعدل وأصوب. وإنما كان أعدل وأصوب ، لأنه دل على معنى لا احتمال فيه، بخلاف قولهم السابق.

قوله (ولكن لعنهم الله بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلا) أي ولكن لما كانت طباعهم غير زكية ، ونفوسهم غير رضية ، ولم يسلكوا المسلك الحسن ، طردهم الله بكفرهم وعنادهم ، فلم يصل الإيمان النافع إلى قلوبهم ، فهم يؤمنون ببعض الأشياء ويكفرون ببعض، فكان وجود هذا الإيمان القليل كعدمه.

قال تعالى: (يا أيها الرسول لا يحزنك الذين يسارعون في الكفر من الذين قالوا آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم ومن الذين هادوا سماعون للكذب سماعون لقوم آخرين لم يأتوك يحرفون الكلم من بعد مواضعه يقولون ان اوتيتم هذا فخذوا وان لم تؤتوه فاحذروه ومن يرد الله فتنته فلن تملك له من الله شيئا أولئك الذين لم يرد الله أن يطهر قلوبهم لهم في الدنيا خزي ولهم في الآخرة عذاب عظيم)المائدة-٤١.

افتتح الخطاب بأشرف الصفات ، وهي صفة الرسالة عن الله، وفيه تسلية للرسول ﷺ مما يجد من المنافقين واليهود من كذب، واضطراب وسوء معاملة.

سبب نزول الآية:

أخرج مسلم وغيره عن البراء بن عازب رضي الله عنه قال : مر النبي ﷺ بيهودي محمما مجلودا ، فدعاهم صلى الله عليه وسلم فقال : ((هكذا تجدون حد الزاني في كتابكم ؟)) قالوا : نعم ، فدعا رجلا من علمائهم فقال : ((انشدك بالله الذي أنزل التوارة على موسى، أهكذا تجدون حد الزاني في كتابكم؟ قال : لا ، ولولا أنك نشدتني بهذا لم أخبرك ، نجده الرجم ، ولكنه كثر في أشرافنا ، فكنا إذا أخذنا الشريف تركناه ، وإذا أخذنا الضعيف أقمنا عليه الحد، قلنا تعالوا فلنجتمع على شئ نقيمه على الشريف والوضيع ، فجعلنا التحميم(١) والجلد مكان الرجم، فقال رسول الله ﷺ : ((اللهم إني أول من أحيا أمرك إذ أماتوه) فأمر به فرجم ، فأنزل الله عز وجل ((يا أيها الرسول لا يحزنك الذين يسارعون في الكفر) إلى قوله (إن أوتيتم هذا فخذوه) يقولون –أي اليهود– ائتوا محمداً ﷺ ، فان أمركم بالتحميم والجلد فخذوه ، وان أفتاكم بالرجم فاحذروا ، فأنزل الله تعالى ((ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون) ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون)) ((ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون)) في الكفار كلها (٢).

التحميم : تسويد الوجه بالفحم.
صحيح مسلم ٣/ ١٣٢٧ كتاب الحدود.

قال ابن عاشور((وكان حكم الرجم عندهم مكتوما لا يعلمه إلا خاصة أحبارهم ومنسيا لا يذكر بين علمائهم ، فلما حكم عليهم به بهتوا)) (١)

ومعنى :(لا يحزنك) أي لا تهتم بما يفعلون مما شأنه أن يدخل الحزن على نفسك.

ومعنى (يسارعون في الكفر) أي في إظهاره عند أدنى مناسبة ، وفي كل فرصة، والمسارعة إلى الشيء : الوقوع فيه بسرعة.

وقوله(من الذين قالوا آمنا بأفواههم و لم تؤمن قلوبهم) وهم المنافقون ، وقوله (ومن الذين هادوا) أي أن المسارعين في الكفر طائفة المنافقين وطائفة اليهود.

وقوله (سماعون للكذب) فيه قولان:

١- أي سماعون منك ليكذبوا عليك . فاللام في قوله (للكذب) لام (كي) .

٢- سماعون للكذب ، أي قابلون له ، والسمع يستعمل ويراد منه القبول ، كما يقال : لا تسمع من فلان، أي لا تقبل منه، ومنه: سمع الله لمن حمده. والكذب الذي يقبلونه هو ما يقوله رؤساؤهم من الأكاذيب في دين الله تعالى في تحريف التوارة ، وفي الطعن في محمد ﷺ.

وقوله (سماعون لقوم آخرين لم يأتوك) فيه قولان:

١- سماعون من رسول الله لأجل قوم آخرين من اليهود، فهم عيون وجواسيس لقوم آخرين لم يحضروا عندك إلا لينقلوا إليهم أخبارك.

٢- سماعون من قوم آخرين ، وهم رؤساؤهم المبدلون التوراة.

ولا منافاة بين هذه الأقوال .

---

(١) تفسير التحرير والتنوير لابن عاشور ٦/ ١٩٦.

قوله (يحرفون الكلم من بعد مواضعه) أي من بعد أن وضعه الله في مواضعه فأحل حلاله ، وحرم حرامه . وفي هذا التحريف خمسة أقوال :

١- تغيير حدود الله في التوارة ، وذلك أنهم غيروا الرجم.

٢- تغيير ما يسمعونه من النبي ﷺ بالكذب عليه ، والزيادة والنقصان.

٣- إخفاء صفة النبي ﷺ.

٤- سوء التأويل عن قصد.

٥- اسقاط القود بعد استحقاقه.

قلت : وكل ذلك قد فعلوا.

وقد ورد في سورة النساء:(.. **من الذين هادوا يحرفون الكلم عن مواضعه**) (١)

وفي سورة المائدة الآية ١٣ (.. **وجعلنا قلوبهم قاسية يحرفون الكلم عن مواضعه**)

قال إبن عاشور: ((يحرفون الكلم من بعد مواضعه)) تغيير كلام التوراة بكلام آخر ، عن جهل ، أو قصد، أو خطأ في تأويل معاني التوارة ، أوفي ألفاظها، فكان إبعادا للكلام عن مواضعه ، أي إزالة الكلام الأصلي ، سواء عوض بغيره ، أم لم يعوض ، وأما هذه الآية ففي ذكر طائفة معينة أبطلوا العمل بكلام ثابت في التوارة، إذ الغوا حكم الرجم الثابت فيها ، دون تعويضه بغيره من الكلام ، فهذا اشد جرأة من التحريف الآخر، فكان قوله (من بعد مواضعه) ابلغ في تحريف الكلام ، لأن (بعد) يقتضي أن مواضع الكلم مستقرة وأنه ابطل العمل بها مع بقائها قائمة في كتاب التوراة)) (٢)

الآية ٤٦.
التحرير والتنوير ٢٠٠/٦ .

قوله تعالى (ألم تر إلى الذين نهو عن النجوى ثم يعودون لما نهوا عنه ويتناجون بالإثم والعدوان ومعصية الرسول وإذا جاءوك حيوك بما لم يحيك به الله ويقولون في أنفسهم لولا يعذبنا الله بما نقول حسبهم جهنم يصلونها فبئس المصير)المجادلة —٨.

ذكر ابن الجوزي أن هذه الآية نزلت في اليهود ، أو في اليهود والمنافقين ، قال مقاتل : وكان بين اليهود وبين رسول الله موادعة، فإذا رأوا رجلا من المسلمين وحده تناجوا بينهم ، فيظن المسلم أنهم يتناجون بقتله ، أو بما يكره ، فيترك الطريق من المخافة ، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ، فنهاهم عن النجوى ، فلم ينتهوا ، وعادوا إليها ، فنزلت هذه الآية . (١)

والنجوى : الحديث بين اثنين أو أكثر سرا.

قال أبو السعود: (والهمزة للتعجب من حالهم ، وصيغة المضارع (ثم يعودون ، للدلالة على تكرار عودهم ، وتجدده، واستحضار صورته العجيبة) (٢)

وبدأ بالإثم لأنه عام في جميع الذنوب ، ثم العدوان لعظمته في النفوس، لأنه اعتداء على الآخرين ، ثم ترقي إلى ما هو اعظم وهو معصية الرسول ﷺ. (٣)

قوله (وإذا جاءوك حيوك بما لم يحيك به الله ..)

اخرج الإمام أحمد والبزار ، والطبراني بسند جيد ، وحسنه ابن كثير عن عبد الله بن عمرو أن اليهود كانوا يقولون لرسول الله ﷺ: سام عليك (١) (ثم يقولون في أنفسهم لولا يعذبنا الله بما نقول) فنزلت هذه الآية —٦-(٢).

زاد المسير ١٨٨/٨.
تفسير ابي السعود ١٤٥/٨.
انظر البحر ٢٣٦/٨.

وقوله (حسبهم جهنم يصلونها فبئس المصير) أي يكفيهم عذابا أن يدخلوا نار جهنم يصلون حرها.

المبحث الثالث : أهل الكتاب ليسوا على شئ من الحق.

قوله تعالى(قل يا أهل الكتاب لستم على شئ حتى تقيموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليكم من ربكم وليزيدن كثيرا منهم ما أنزل إليك من ربك طغيانا وكفرا فلا تأس على القوم الكافرين) المائدة الآية-٦٨-

أي قل يا محمد لليهود والنصارى لستم على شئ من الدين يذكر ، لا قليل ولا كثير ، أي لاحظ لهم بشئ من الدين يعتد به عند الله حتى تقيموا التوراة والإنجيل ، وإقامتهما العمل بما فيهما ، ومن ذلك الإيمان بمحمد ﷺ، قوله (وما أنزل إليكم من ربكم) يعني القرآن.

قوله (وليزيدن كثيرا منهم ..) أي من اليهود والنصارى ، وذلك بباعث الحسد على هذا الدين ، ونزول القرآن ناسخا لدينهم ، والطغيان هو الغلو في الظلم ، مع عدم الاكترارث بلوم اللائمين من أهل اليقين ، فهم يفقدون الصواب ، ويقلبون الحقائق ، ويتميزون غيضا ومكابرة حتى ترى العالم المشهود له منهم يتصاغر ويتسفل إلى دركات التباهل والتجاهل ، إلا قليلا ممن اتخذ الإنصاف شعارا ، وتباعد عن أن يرمى بسوء الفهم. (٣)

---

(٣) يعنون : الموت.
انظر مجمع الزوائد ١٢٢/٧ ، وتفسير ابن كثير ٣٤١/٤
انظر تفسير ابن عاشور ٢٦٦/٦.

قوله (فلا تأس على القوم الكافرين) أي لا تحزن عليهم من توغلهم في الطغيان والكفر مع علمهم بطغيانهم وكفرهم ، وقد كان الرسول ﷺ يحزنه ذلك ويؤسفه لرحمته بالخلق.

المبحث الرابع : إفسادهم في الأرض

قال سبحانه : (وقالت اليهود يد الله مغلولة غلت أيديهم ولعنوا بما قالوا بل يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء وليزيدن كثيرا منهم ما أنزل إليك من ربك طغيانا وكفرا، وألقينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة ، كلما أوقدوا نارا للحرب أطفأها الله ، ويسعون في الأرض فسادا والله لا يحب المفسدين)المائدة –٦٤–.

أخرج الطبراني ، وابن إسحاق عن ابن عباس قال : قال رجل من اليهود يقال له شاس بن قيس : إن ربك بخيل لا ينفق فنزلت ([1]).

وأخرج أبو الشيخ عن ابن عباس : نزلت في فنحاص رأس يهود بني قينقاع. ولما لم ينكر على القائل قومه ، ورضوا بقوله أشركهم الله فيها.

وذكر العلماء أقوالا في سبب قولهم ذلك منها:

١– أن الله تعالى كان قد بسط لهم الرزق ، فلما عصوا الله تعالى في أمر محمد ﷺ وكفروا به ، كف عنهم بعض ما كان بسط لهم ، فقالوا : يد الله مغلولة .

٢– وقيل : إن الله استقرض منهم كما استقرض من هذه الأمة، فقالوا : إن الله بخيل ، ويده مغلولة ، فهو يستقرضنا.

---

[1] قال الهيثمي في المجمع : رواه الطبراني ورجاله ثقات ١٧/٧.

٣- وقيل : قالوا ذلك لما استعان بهم الرسول ﷺ في الديات وقد رد الله على قولهم اللئيم فقال (غلت أيديهم ولعنوا بما قالوا بل يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء . .)

وقوله (وليزيدن كثيرا منهم ما أنزل إليك من ربك طغيان وكفرا)

قال ابن كثير : ((أي يكون ما أتاك الله يا محمد من النعمة نقمة في حق أعدائك من اليهود وأشباههم ، فكما يزداد به المؤمنون تصديقا وعملا صالحا وعلما نافعا، يزداد به الكفرة الحاسدون لك ولأمتك طغيانا ، وهو المبالغة والمجاوزة للحد في الأشياء ، وكفرا ، أي تكذيبا) ([1])

قوله (وألقينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة) قيل بين اليهود والنصارى، وقيل : بين فرق اليهود. وهذا عقاب من الله لهم ، وفيه تسلية للرسول ﷺ أن لا يهمه أمر عداوتهم له ، فهم لا تجتمع قلوبهم أبدا.

قوله (كلما أوقدوا نارا للحرب أطفأها الله) أي كلما عقدوا أسبابا يكيدونك بها، وكلما ابرموا أمورا يحاربونك بها يبطلها الله ، ويرد كيدهم عليهم ، ويحيق مكرهم السيئ بهم.

(ويسعون في الأرض فسادا) أي يجتهدون في الكيد للإسلام وأهله وإثارة الشر والفتنه بين المسلمين .

قال أبو حيان : ((والأرض يجوز أن يراد بها الجنس)) ([2])

(تفسير ابن كثير ١٣٩/٣.
(البحر المحيط ٢٦/٣.

أي في شتى بقاع الأرض ، وبجميع صور الفساد وهذه سجيتهم أنهم دائما يسعون في الإفساد في الأرض والله لا يحب من هذه صفته.

المبحث الخامس : سعيهم لإطفاء نور الله في الأرض

قال تعالى: ((يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولوكره الكافرون)) التوبه الآية —٣٢،٣٣ —.

الضمير في قوله (يريدون) عائد إلى الذين أوتوا الكتاب)) في الآية ٢٩ (قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون))

والذين أوتوا الكتاب هم اليهود والنصارى.

وقد وصفهم الله في الآيات من ٢٩-٣٤ بإثنتي عشرة صفة:

١- لا يؤمنون بالله الإيمان الصحيح النافع.

٢- لا يؤمنون باليوم الآخر كما يجب.

٣- لا يحرمون ما حرم الله ورسوله ، جاء في تفسير ابن عطية بصدد قوله تعالى((ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله)) فبين ونص على مخالفتهم لمحمد ﷺ.([1])

٤- لا يدينون دين الحق أي لا يدينون بالإسلام الذي لا يقبل الله من أحد سواه.

---

[1]) تفسير ابن عطية ٤٥٦/٦.

٥- اليهود قالوا عزير بن الله ، والنصارى قالوا : المسيح بن الله .

٦- اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله.

٧- أنهم مشركون.

٨- محاربون لدين الله يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم.

٩- هم كافرون .

١٠- كثير من أحبارهم ورهبانهم يأكلون أموال الناس بالباطل.

١١- يصدون الناس عن سبيل الله .

١٢- لا يخرجون زكاة أموالهم وقد أوجبها الله عليهم.

إذاً فاليهود والنصارى منحرفون عن الدين الصحيح ، اعتقادا ، وعملا ، وقولا. وهم لا يقفون عند هذا الانحراف ، بل يعلنون الحرب على دين الإسلام، ويريدون إطفاء نور الله في الأرض بما يطلقونه من أكاذيب ودسائس وفتن ، وبما يحرضون به أشياعهم وأتباعهم على حرب هذا الدين وأهله(١) .

قال ابن عاشور : ((ولو في (كره الكافرون) اتصالية ، وهي تفيد المبالغة بأن ما بعدها أجدر بانتفاء ما قبلها لو كان منتفيا ، والمبالغة بكراهية الكافرين ترجع إلى المبالغة بآثار تلك الكراهية ، وهي التألب والتظاهر على مقاومة الدين وإبطاله ، وأما بمجرد كراهيتهم فلا قيمة لها عند الله تعالى حتى يبالغ بها ، والكافرون هم اليهود والنصارى)) (٢)

وقوله (ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون)

---

١) انظر في ظلال القرآن ١٦٤٣/٣.
٢) التحرير والتنوير ١٧٢/١٠.

هذا وعد من الله بإتمام نوره لتطمئن بذلك نفوس المؤمنين ، مهما فعل الكافرون من حرب ومكر وكيد لإطفاء هذا الدين.

قوله (هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون)

هذا النص يبين أن دين الحق هو الإسلام ، وما عداه من الأديان لا يعتد بها ، لأنها قد حرفت ، ولأن الإسلام قد نسخها ، قال تعالى(قل يا أهل الكتاب لستم على شئ حتى تقيموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليكم من ربكم)وهذا فيه توكيد بإظهار هذا الدين سواء بغلبة المسلمين على عدوهم ، أو بما اشتمل عليه هذا الدين من الحجج والمعجزات والبراهين التي لا يجحدها إلا معاند ومكابر وجحود الجاحد ومكابرة المكابر لا تغير من أحقية الإسلام شيئا ولا تحجب هذه الأحقية عمن يريد أبصارها.

الفصل الثاني

موقفهم من المسلمين وفيه خمسه مباحث

المبحث الأول : حسدهم للرسول والمسلمين

قوله تعالى(أم لهم نصيب من الملك فإذا لا يأتون الناس نقيرا) النساء-٥٣- أم منقطعة بمعنى (بل) والهمزة للاستفهام الإنكاري ، أي بل ألهم نصيب من الملك فيفضلون من شاؤا على من شاؤوا بمجرد أهوائهم فيكونون شركاء لله في تدبير مملكته ، فلو كان كذلك ما أعطوا أحدا مقدار نقير ، لفرط بخلهم وحسدهم ، والنقير : النقرة في ظهر النواة.

قوله (أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله)

أم منقطعة بمعنى بل للإضراب الانتقالي، من توبيخهم بالبخل إلى توبيخهم بالحسد ، وهما من شرار الرذائل ، والاستفهام إنكار على حسدهم.

والمعنى: أيحسدون ، يعنى اليهود يحسدون النبي ﷺ فقط ، أو يحسدونه هو وأصحابه على ما آتاهم الله من فضله من النبوة ، والهدى إلى الإيمان ، والنصر على الأعداء ، ونحو ذلك .

قوله تعالى(فقد آتينا آل إبراهيم الكتاب والحكمة وآتيناهم ملكا عظيما)

آل إبراهيم : أبناؤه وعقبه ونسله ، وإبراهيم داخل في هذا الحكم، والكتاب جنس؛ فيشمل صحف إبراهيم ، وصحف موسى ، وما أنزل بعد ذلك والحكمة : النبوة. والملك العظيم : ما كان لداود وسليمان عليهما السلام.والمعنى : أنه حصل في أولاد إبراهيم جماعة كثيرون جمعوا بين النبوة والملك وأنتم تعرفون ذلك ولم

تنكروه ، فكيف تنكرون هذا الفضل على محمد ﷺ وأصحابه ، فهو ليس ببدع عليهم.

قوله تعالى(فمنهم من آمن به ومنهم من صدعنه) فيه قولان :

١- أي فمن الذين أوتوا نصيبا من الكتاب من آمن بمحمد ، ومنهم من أعرض وصرف الناس عنه.

٢- أي فمن آل إبراهيم من آمن به ، ومنهم من كفر ، فليس تكذيب اليهود محمداً بأعجب من ذلك.

قوله تعالى(وكفى بجهنم سعيرا) أي وكفى بالنار عقوبة لمن كفر بالله ، وجحد نبوة أنبيائه من اليهود والنصارى وغيرهم.

قوله تعالى(ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفاراً حسداً من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق فاعفوا واصفحوا حتى يأتي الله بأمره إن الله على كل شئ قدير) البقرة-١٠٩-.

يتمنى اليهود والنصارى أن يروا المسلمين وقد رجعوا إلى الشرك ، وتركوا الإيمان بالله الذي هداهم الله إليه وهنا سر في التعبير بقوله (يردونكم) لأن الرد إنما يكون إلى أمر سابق، والأمر السابق للمسلمين هو الشرك.

ولو قيل : لو كفرتم ، لكان بعض العذر لأهل الكتاب ، لاحتمال انهم يودون مصير المسلمين إلى اليهودية.

وليس هذا التمني وهذه الرغبة لأنهم لا يعلمون الحق، بل هم يعلمون ذلك ، وإنما حملهم عليه العناد والحسد.

ولما كان الكفر بعد الإيمان أبغض شئ عند المسلمين فهم يريدون الانتقام ممن يحب لهم الرجوع إلى الكفر، فأمرهم الله بالعفو والإعراض عن اليهود حتى يفعل الله ما يشاء.

وقوله تعالى(إن الله على كل شئ قدير) فيه تعليم للمسلمين على فضيلة العفو مع القدرة على الانتقام . فإن الله قدير على كل شئ وهو يعفو ويصفح ، فكونوا كذلك أيها المؤمنون.

قوله تعالى(ما يود الذين كفروا من أهل الكتاب ولا المشركين أن ينزل عليكم من خير من ربكم والله يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم) البقرة -١٠٥-

الود: محبة الشيء مع تمنيه . ((خير)): نكره ، وقد سبقه نفي فدل على العموم.

أي ما يحب الكافرون من اليهود والنصارى ، ولا المشركون أن يترل عليكم شئ من الخير ، بغضا فيكم وحسدا لكم.

قال ابن جرير الطبري: ((وفي هذه الآية دلالة بينة على أن الله تبارك وتعالى نهى المؤمنين عن الركون إلى أعدائهم من أهل الكتاب والمشركين ، والإستماع إلى قولهم ، وقبول شئ مما يأتونهم به على وجه النصيحة لهم منهم باطلاعه - جل ثناؤه - إياهم على ما يستبطنه لهم أهل الكتاب والمشركون من الضغن والحسد ، وإن اظهروا بألسنتهم خلاف ما هم مستبطنون) ([1]).

---

[1]) تفسير ابن جرير ٤٧٠/٢.

قوله تعالى(والله يختص برحمته من يشاء) أي يختص بالنبوة والوحي والفضل والإحسان من شاء من عباده ، ولو حسد الحاسدون وكره الكارهون فلا يغيرون شيئا مما أراده الله من فضل لمن شاء من عباده.

المبحث الثاني: مخاطبتهم للرسول بما فيه تمويه

قوله تعالى(يا أيها الذين آمنوا لا تقولوا راعنا وقولوا انظرنا واسمعوا وللكافرين عذاب أليم) البقرة –١٠٤-

هذه جناية أخرى من جنايات اليهود ، فكما أنهم يستعملون السحر للتمويه ، فهم كذلك يخاطبون الرسول ﷺ بما فيه تمويه من الكلام ، واحتمال لأكثر من معنى.

فكان المسلمون إذا ألقى عليهم رسول الله شيئا من القرآن قالوا (راعنا) يا رسول الله ، أي راقبنا ، وانتظرنا وتأن بنا حتى نفهم كلامك ونحفظه.وكانت لليهود كلمة عبرانية يتسابون بها فيما بينهم وهي (راعنا) قيل معناها: اسمع لا سمعت ، وقيل : نسبة إلى الرعن، وهو الحمق والهوج، فلما سمعوا قول المؤمنين ، اتخذوه فرصة ، وذريعة إلى مقصدهم الخبيث ، فجعلوا يخاطبون به رسول الله ﷺ، يعنون به تلك المسبة، فنزلت الآية ، ونهى فيها المؤمنون عن ذلك قطعا لألسنة اليهود عن التدليس ، وأمروا باستعمال كلمة لا تقبل التلبيس .

(وقولوا انظرنا)أي انظر إلينا ، أو انتظرنا، أو أمهلنا حتى نحفظ.

قوله (واسمعوا) أي قولوا ما أمرتكم به ، وامتثلوا جميع أوامري. ولا تكونوا كاليهود حيث قالوا سمعنا وعصينا.

قوله (وللكافرين عذاب أليم) أي اليهود الذين توسلوا بقولكم المذكور إلى كفرياتهم ، وجعلوه سببا للتهاون برسول الله ﷺ وقالوا ما قالوا ، وفيه وعيد شديد لهم ، ونوع تحذير للمخاطبين عما نهوا عنه.

المبحث الثالث : سعيهم لخداع المسلمين وتضليلهم وإغراقهم في الشهوات

قوله تعالى(ودت طائفة من أهل الكتاب لو يضلونكم وما يضلون إلا أنفسهم وما يشعرون) آل عمران الآية –٦٩–

لما بين سبحانه في الآيات السابقة أن من طريقة أهل الكتاب العدول عن الحق، والإعراض عن قبول الحجة، بين أنهم لا يقتصرون على هذا القدر ، بل يجتهدون في إضلال من آمن بالرسول ﷺ فقال : (ودت طائفة من أهل الكتاب لو يضلونكم..) .

ودت ، أي تمنت ، والمراد بأهل الكتاب هنا : اليهود خاصة ، ولذلك عبر عنهم بطائفة من أهل الكتاب، والإضلال : الخروج عن دين الإسلام.

وقوله تعالى(وما يضلون إلا أنفسهم) أي وما يتخطاهم هذا الإضلال ، وما يعود وباله إلا عليهم بسبب تركهم الحق الذي يعلمونه، والدعوة إلى باطلهم.

وقوله تعالى(وما يشعرون) أي وما يعلمون أن هذا لا يضر المؤمنين.

قال سيد قطب رحمه الله: ((والمسلمون مكفيون أمر أعدائهم هؤلاء ما استقاموا على إسلامهم ، ومالهم عليهم من سبيل ، والله سبحانه يتعهد لهم ألا يصيبهم كيد الكائدين ، وأن يرتد عليهم كيدهم ما بقى المسلمون مسلمين)) (١)

---

١) الظلال ٤١٤/١.

قوله تعالى(وقالت طائفة من أهل الكتاب آمنوا بالذي أنزل على الذين آمنوا وجه النهار واكفروا آخره لعلهم يرجعون)آل عمران -٧٢-.

وهذه حيلة وخدعة من خدع اليهود والنصارى لتشكيك ضعفاء المسلمين في الدين.

قال الشهيد سيد قطب رحمه الله : ((وهي طريقة ماكرة لئيمة ، فإن إظهار الإسلام ثم الرجوع عنه يوقع بعض ضعاف النفوس والعقول وغير المتثبتين من حقيقة دينهم وطبيعته يوقعهم في بلبلة واضطراب ، وبخاصة العرب الأميين ، الذين كانوا يظنون أن أهل الكتاب أعرف منهم بطبيعة الديانات والكتاب ، فإذا رأوهم يؤمنون ، ثم يرتدون حسبوا أنهم إنما ارتدوا بسبب اطلاعهم على خبيئة ونقص في هذا الدين...، وما تزال هذه الخدعة تتخذ حتى اليوم في شتى الصور التي تناسب تطور الملابسات و ناس في كل جيل) ([1])

قوله تعالى(ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم) قال سيد قطب : وكان أهل الكتاب يقول بعضهم لبعض تظاهروا بالإسلام أول النهار واكفروا آخره لعل المسلمين يرجعون عن دينهم ، وليكن هذا سرا بينكم ، لا تبدونه ولا تأتمنون عليه إلا أهل دينكم) ([2])

قوله تعالى(قل إن الهدى هدى الله)

أي قل لهم يا محمد : الدين دين الله ، وقد جئتكم به ، فلن ينفعكم في دفعه هذا الكيد الضعيف.

---

[1]) في ظلال القرآن ٤١٥/١.
[2]) المرجع السابق.

قوله تعالى(أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم) فيه أقوال اشهرها قولان :

١- معناه: لا تصدقوا أن يؤتى أحد مما أوتيتم من العلم ، وفلق البحر، والمن والسلوى، وغير ذلك ، ولا تصدقوا أن يجادلوكم عند ربكم لأنكم اصح دينا منهم ، فيكون الكلام كله من كلام اليهود، وجملة (قل إن الهدى هدى الله) معترضة.

٢- أن كلام اليهود تم عند قوله (لمن تبع دينكم) والباقي من قول الله تعالى لا يعترضه شئ من قولهم ، والمعنى : قل يا محمد : إن الهدى هدى الله أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم يا أمة محمد ، إلا أن تجادلكم اليهود بالباطل ، فيقولون نحن أفضل منكم ، قال الفراء : معنى (أن يؤتى) أن لا يؤتى(١).

وقال سيد قطب: ((قل إن الهدى هدى الله) ويجئ هذا التقرير رداً على مقالتهم (آمنوا بالذي أنزل على الذين آمنوا وجه النهار واكفروا آخره لعلهم يرجعون) تحذيرا للمسلمين من تحقيق الهدف اللئيم، فهو الخروج من هدى الله كله ، فلا هدى إلا هداه وحده ، وإنما هو الضلال والكفر ما يريده بهم هؤلاء الماكرون) (٢)

قوله تعالى(قل إن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم)

---

(١) انظر زاد المسير ٤٠٦/١.
(٢) في ظلال القرآن ٤١٦/١.

زيادة تذكير لليهود ، ليتركوا الحسد على نعم الله تعالى ، فكما أعطى الله الرسالة موسى كذلك أعطاها محمدا ﷺ ، فليس الفضل من الله تبعا لشهواتهم ، بل الفضل بيد الله ، وهو لا يخفى عليه من هو أهل لنوال فضله.

قوله تعالى(ها أنتم أولاء تحبونهم ولا يحبونكم وتؤمنون بالكتاب كله واذا لقوكم قالوا آمنا وإذا خلوا عضوا عليكم الأنامل من الغيظ قل موتوا بغيظكم إن الله عليم بذات الصدور) آل عمران -١١٩-

قوله تعالى(ها أنتم أولاء تحبونهم ولا يحبونكم) أي ها أنتم يا معشر المؤمنين خاطئون في موالاتكم لهم إذ تحبونهم ولا يحبونكم ، تريدون لهم النفع وتبذلون لهم المحبه وهم يريدون لكم الضر ويضمرون لكم العداوة.

قوله تعالى(وتؤمنون بالكتاب كله) أي وأنتم تؤمنون بالكتب المنزلة كلها ، وهم مع ذلك يبغضونكم، فما بالكم تحبونهم وهم لا يؤمنون بشئ من كتابكم ؟وفيه توبيخ شديد بأنهم في باطلهم أصلب منكم في حقكم .

قوله تعالى(وإذا لقوكم قالوا آمنا) وهذا من خبثهم إذ يظهرون أمامكم الإيمان نفاقا. قوله (وإذا خلوا عضوا عليكم الأنامل من الغيظ) أي وإذا خلت مجالسهم منكم عضوا أطراف الأصابع من شدة الحنق والغضب لما يرون من ائتلافكم ، وهو كناية عن شدة الغيظ والتأسف لما يفوتهم من أذية المؤمنين.

(قل موتوا بغيظكم) هو دعاء عليهم ، أي قل يامحمد أدام الله غيظكم إلى أن تموتوا .

قوله تعالى(إن الله عليم بذات الصدور) أي إن الله عالم بما تكنه سرائركم من البغضاء والحسد للمؤمنين.

ثم اخبر سبحانه بما يترقبون نزوله من البلاء والمحنه بالمؤمنين فقال (إن تمسسكم حسنة تسؤهم) أي إن أصابكم ما يسركم من رخاء وخصب ونصرة وغنيمة ونحو ذلك ساءتهم (وإن تصبكم سيئة يفرحوا بها) أي وإن أصابتكم ما يضركم من شدة وجدب وهزيمة وأمثال ذلك سرتهم .

فبين تعالى بذلك فرط عداوتهم حيث يسوءهم ما نال المؤمنين من الخير ويفرحون بما يصيبهم من الشدة.

(وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئا) أي إن صبرتم على ما قدره الله عليكم من شدة، واتقيتم الله في أقوالكم وأعمالكم لا يضركم مكرهم وكيدهم، فشرط تعالى نفي ضررهم بالصبر والتقوى.

قوله تعالى(إن الله بما يعملون محيط) أي هو سبحانه عالم بما يدبرونه لكم من مكائد ، فيصرف عنكم شرهم ، ويعاقبهم على نواياهم الخبيثة.

قوله تعالى(والله يريد أن يتوب عليكم ويريد الذين يتبعون الشهوات أن تميلوا ميلا عظيما)النساء-٢٧-

أي يريد الله أن يبين لكم طريق الخير والهدى، واليسر والسعادة، ويحثكم عليها كي تتوبوا عن المعاصي فيتوب عليكم.

هذه هي إرادة الله للناس جميعا، فما الذي يريده أعداء الله وأعداء الإنسانية:

((ويريد الذين يتّبعون الشهوات أن تميلوا ميلا عظيما))

في الذين يتبعون الشهوات أربعة أقوال:

١ – هم الزناة . قاله مجاهد

٢– اليهود والنصارى. قاله السدى

٣– اليهود خاصة. قاله ابن جرير

٤– أهل الباطل. قاله عبد الرحمن بن زيد

ولا تنافى بين هذه الأقوال ، فأهل الباطل وعلى رأسهم اليهود والنصارى يسعون بشتى الوسائل لصرف المسلمين عما يريده الله لهم من الخير والهدى ، والطهر والعفاف.

فنجد هؤلاء الفاسدين يسعون إلى الفاحشة باسم الحرية ، والمساواة ، وحقوق المرأة ، ونحو ذلك من الأسماء، ويجندون لذلك الحيوش من الرجال والنساء في شتى بقاع الأرض.

ونجدهم يسعون إلى تجهيل الأمة بدينها ، ونجدهم يسعون إلى الفاحشة عن طريق وسائل الإعلام المتعددة.

ولن يرضوا عن الأمة الإسلامية حتى يسلكوا طريقهم حذو القذة بالقذة ولهذا قال تعالى: (ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يشترون الضلالة ويريدون أن يضلوا السبيل . والله أعلم بأعدائكم وكفى بالله وليا وكفى بالله نصيرا)النساء –٤٤–٤٥–.

قوله تعالى(ألم تر) الخطاب لكل من يتأتى منه الرؤيا من المسلمين

والنصيب : الحظ والنصيب من الشئ ، وإنما قال (أوتوا نصيبا) ولم يقل (أوتوا الكتاب) لإن المقام مقام ذم .

والمراد بهم : اليهود ، أوتوا نصيبا من التوراة.

وقولة (يشترون الضلالة) أي أن اليهود استبدلوا الضلالة وهي البقاء على اليهودية بعد وضوح الحجة على صحة نبوة محمد ﷺ على الهدى.

(ويريدون أن تضلوا السبيل) أي لم يكتفوا بما جنوه على أنفسهم من استبدال الضلالة بالهدى ، بل أرادوا مع ضلالهم أن يتوصلوا بكتمهم وجحدهم أن تضلوا أنتم أيها المؤمنون السبيل المستقيم الذي هو الحق الذي جاء به محمد ﷺ .

قوله تعالى(والله أعلم بأعدائكم) أي هو أعلم بهم منكم ، ويحذركم منهم، فهم يريدون إضلالكم عن عداوة وحسد ، فلا تستنصحوهم .

قوله تعالى(وكفى بالله وليا وكفى بالله نصيرا) أي إذا كان اليهود بهذه العداوة الشديدة لكم، وهم يملكون العدد والعدة ، فلا تخافوا منهم، فالله هو الذي يتولى أمركم ، و ينصركم عليهم ، فهو يكفيكم شر عدوكم لا غيره.

قوله تعالى(إن الذين يكفرون بالله ورسله ، ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلا اولئك هم الكافرون حقا واعتدنا للكافرين عذابا مهينا)النساء –١٥٠-١٥١-.

قال ابن كثير رحمه الله: (يتوعد تبارك وتعالى الكافرين به وبرسله ، من اليهود والنصارى ، حيث فرقوا بين الله ورسله في الإيمان ، فآمنوا ببعض الأنبياء ، وكفروا ببعض ، بمجرد التشهي والعادة ، وما ألفوا عليه آباءهم ، لا عن دليل قادهم إلى ذلك، فإنه لا سبيل لهم إلى ذلك ، بل بمجرد الهوى والعصبية، فاليهود عليهم لعائن

الله آمنوا بالأنبياء إلا عيسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام ، والنصارى آمنوا بالأنبياء وكفروا بخاتمهم وأشرفهم محمد ﷺ...

والمقصود أن من كفر بنبي من الأنبياء فقد كفر بسائر الأنبياء ، فان الإيمان واجباً بكل نبي بعثه الله إلى أهل الأرض ، فمن رد نبوته ، للحسد أو العصبية أو التشهي تبين أن إيمانه بمن آمن به من الأنبياء ليس إيمانا شرعيا ، إنما هو عن غرض وهوى وعصبية) (١)

قوله (ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلا) أي يريدون أن يتخذوا بين الإيمان ببعض الرسل ، والكفر ببعض، دينا يسلكونه ، مع أنه من كفر برسول فقد كفر بجميعهم قطعا، ولذلك قال : (أولئك هم الكافرون حقا) وذلك لئلا يتوهم أن مرتبتهم متوسطة بين الإيمان والكفر.

قوله (واعتدنا للكافرين عذابا مهينا) أي كما استهانوا بمن كفروا به أهانهم الله بالذل في الدنيا ، والعذاب المهين المخزي في الآخرة.

المبحث الرابع : صدهم المسلمين عن الطريق المستقيم

قوله (قل يا أهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله والله شهيد على ما تعملون ، قل يا أهل الكتاب لم تصدون عن سبيل الله من آمن تبغونها عوجا وأنتم شهداء وما الله بغافل عما تعملون)آل عمران —٩٨-٩٩-.

) تفسير ابن كثير ٦٣١/١.

أهل الكتاب على علم ويقين بصدق محمد ﷺ، وأن الدين الذي جاء به هو الحق ومع ذلك يسلكون شتى الطرق لصرف الناس عن هذا الدين ، فكان لابد من الإنكار عليهم ومواجهتهم بالحقيقة التي هم عليها.

(قل يا أهل الكتاب) أهل الكتاب هم اليهود والنصارى

(لم تكفرون بآيات الله) الآيات هي الحجج والبراهين ، والمعجزات التي لا تترك مجالا للشك والتردد في الأمر ، وهذه الحجج جاء بها القرآن والتوراة والإنجيل معا لذلك سماهم الله كفارا ، فلا يقال توحيد الأديان الموجودة، والمؤاخاة بين الأديان ، وملاقات الأديان ، وما شابه ذلك ، فإن أهل الكتاب ليسوا على شئ من الهدى، لأن مصدر الدين الذي جاءت به الرسل واحد، ووصى به بعضهم بعضا، فمن كفر ببعضه فقد كفر بالرسل جميعا، وخرج عن وحدة الرسل وتوحيدهم.

قوله تعالى(والله شهيد على ما تعملون) أي الله مطلع على ما تعملونه من الكفر والشر والفساد ، وفيه توبيخ وتهديد.

(قل يا أهل الكتاب لم تصدون عن سبيل الله من آمن ..)

توبيخ ثان، وإنكار على ما يفعلونه من إضلالهم وصرفهم للمؤمنين عن الطريق الصحيح .فبعد أن أنكر عليهم ضلالهم في نفوسهم ، أنكر عليهم إضلالهم لغيرهم.

وقوله(تبغونها عوجا) (تبغون) أي تطلبون ، والإعوجاج ضد الاستقامة.

والمعنى : تصدون عن السبيل المستقيم ، وتطلبون الطريق المعوج.

قوله (وأنتم شهداء) أي وأنتم عالمون أنها سبيل الله المستقيم .

قال ابن عاشور: (وقد أحالهم في هذا الكلام على ما في ضمائرهم مما لا يعلمه إلا الله، لأن ذلك هو المقصود من وخز قلوبهم ، وانثنائهم باللائمة على أنفسهم، ولذلك عقبه بقوله: (وما الله بغافل عما تعملون) وهو وعيد وتهديد ، وتذكير ، لأنهم يعلمون أن الله يعلم ما تخفي الصدور) (١)

قوله تعالى(يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقا من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد إيمانكم كافرين) آل عمران -١٠٠-.

بعد أن وبخ الله اليهود والنصارى على خداعهم ومكرهم وتضليلهم للمؤمنين، وتوعدهم على ذلك ، نادى المؤمنين محذرا إياهم من الوقوع في شباك المضللين فقال : (يا أيها الذين آمنوا أن تطيعوا فريقا من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد إيمانكم كافرين) هذا هو مطلب اليهود والنصارى أن يروا المؤمنين قد كفروا بربهم ، إنه الحقد الدفين، والحسد المستمر لأمه الإسلام ، لأنهم يرون هذه الأمة قد هديت إلى الطريق المستقيم الذي يسعدهم في دنياهم وأخرهم.

هديت إلى العقيدة الصحيحة، والأخلاق الفاضلة، والتشريع القويم ، ووضوح الهدف والغاية من هذه الحياة الفانية. ولذلك هم كانوا وما زالوا ، وسيظلون يبذلون ما في وسعهم لصرف الأمة عن دينها القويم، والفريق الجماعة من الناس والمراد بها هنا الأحبار والرؤوس. (٢)

وقوله تعالى(وكيف تكفرون وأنتم تتلى عليكم آيات الله وفيكم رسوله)

---

١) التحرير والتنوير ٤/٢٧.
٢) تفسير ابن عطية ١/ ٢٤٣.

استفهام إنكاري . بمعنى إنكار الوقوع ، لا بمعنى إنكار الواقع، أي أن كفر المخاطبين مستبعد.

قوله تعالى(وانتم تتلى عليكم آيات الله)

جملة خالية من ضمير المخاطبين في (تكفرون) مؤكدة للنفي .

وقوله تعالى(وفيكم رسوله) معطوف على الجملة السابقة ، داخل في حكمها، لأن كلا من تلاوة آيات الله، وإقامة الرسول بين أظهرهم يعلمهم الكتاب والحكمة وازع لهم من الكفر.

قوله (ومن يعتصم بالله فقد هدي إلى صراط مستقيم)

أي ومن يتمسك بدينه الحق الذي بينه بآياته على لسان رسوله فهو على هدى لا محالة.

المبحث الخامس : عدم رضاهم عن المسلمين حتى يتبعوا أهواءهم.

قوله تعالى(ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم قل إن هدى الله هو الهدى ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذي جاءك من العلم مالك من الله من ولي ولا نصير)البقرة-١٢٠-.

كان الرسول ﷺ يحرص على إيمان اليهود والنصارى، لأنهم أهل كتاب ويعرفون من الحق مالا يعرفه غيرهم، ولكن الله سبحانه العالم بما في الصدور يقرر هذا الحكم المؤيس من إيمانهم ، برسوله محمد ﷺ وبرسالته التي أرسله بها إلى الناس جميعا وهي الإسلام.

(حتى تتبع ملتهم) والملة هي الدين ، والطريقة، والشريعة، فما المراد بالملة هنا؟ هل ما أنزله على اليهود والنصارى؟ أم التوراة ، والإنجيل المحرفتان؟ أم الطريقة التي يضعونها لأنفسهم ويسلكونها؟

من المتفق عليه أن التوراة حرفت ، وأن الإنجيل حرف كذلك، كما أنه من المتعارف عليه أن اليهود لا يعملون بالتوراة ولا النصارى يعملون بالإنجيل ، حتى أحبارهم ورهبانهم. إذا فالملة هي النظم التي يضعونها، وهذه النظم تختلف من وقت إلى آخر، ومن حاكم إلى حاكم آخر ، حسب الأهواء للحكام ، والمصالح التي يرونها لذلك قال سبحانه في نفس الآية(ولئن اتبعت أهواءهم) فملتهم الهوى والشهوات.

قوله تعالى(قل إن هدى الله هو الهدى) أي ما أنزله الله من الشرع هو الهدى، لا غيره.

قوله تعالى(ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذي جاءك من العلم) اللام مواطئة للقسم ، والهوى: رأى ناشئ عن شهوة لا عن دليل .

قوله تعالى(مالك من الله من ولي ولا نصير) هذا جواب القسم وفيه تحذير لكل مسلم عن أن يتبع أهواء أهل الكتاب، والولي من يتولى أمرك ويرعاك ويحفظك ، والنصير هو الذي يدافع عنك ويحميك من أعدائك.

فمن اتبع اليهود والنصارى في أهوائهم ونظمهم فقد اتخذهم أولياء من دون الله.

وفي الآية التي نحن بصدد تفسيرها وهي (ولن ترضى عنك اليهود..... الخ) ضروب من البلاغة:

١- النفي بـ(لن) ولن ترضى) مبالغة في التيئيس من عدم رضاهم ، لأن (لن) لنفي المستقبل وتأبيده في الدنيا.

٢- التصريح بـ (لا) النافية بعد حرف العطف في قوله (ولا النصارى) للتنصيص على استقلالهم بالنفي ، لأنهم كانوا يظن بهم خلاف ذلك ، لإظهارهم شيئا من المودة للمسلمين ، كما في قوله (لتجدن اشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى. .) الآية

وقد تضمنت هذه الآية انهم لا يرضون عن المسلمين حتى يتبعوهم على أهوائهم ، وإن كانوا أخف عداوة من اليهود.

٣- الحصر في قوله (قل إن هدى الله هو الهدى) الضمير ضمير فصل ، والتعريف في الهدى تعريف الجنس الدال على الاستغراق، ففيه طريقان من طرق القصر، هما ضمير الفصل ، وتعريف الجزأين ، للدلالة على أنه لا يوجد هدى غير هدى الله.

٤- التوكيد بحرف (إن) قل إن هدى الله هو الهدى.

٥- القسم الدال عليه اللام المواطئة للقسم في قوله (ولئن اتبعت أهواءهم) ليدل على تخلي الله عمن أطاع اليهود والنصارى.

قوله تعالى(وقالوا كونوا هودا أو نصارى تهتدوا قل بل ملة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين)البقرة –١٣٥-.

أي قالت اليهود كونوا هودا ، وقالت النصارى كونوا نصارى، و(بل) للإضراب الإبطالي ، أي أن اليهودية التي عليها اليهود باطل والنصرانية التي عليها النصارى باطل ، وقوله (ملة إبراهيم حنيفا) والحنيف المائل عن الشرك الى التوحيد وإنما خص إبراهيم في الذكر، لأن اليهود والنصارى قد اتفقوا على صحة دين إبراهيم، ودين إبراهيم هو التوحيد الذي جاء به محمد صلى الله عليه وسلم، والمعنى: قل بل اتبعوا ملة إبراهيم وهي التوحيد الذي اتفق عليه الجميع.

وفي الآية رد على اليهود القائلين بالتشبيه وعلى النصارى القائلين بالتثليث ، وقولهم هذا من إيراد الشبه والتضليل على المسلمين الموحدين.

الفصل الثالث

حربهم للمسلمين وفيه خمسة مباحث.

المبحث الأول: حرصهم على أن يوقعوا المسلمين في مشاق الأمور

قوله تعالى(يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خبالا ودوا ما عنتم قد بدت البغضاء من افواهم وما تخفى صدورهم أكبر قد بينا لكم الآيات إن كنتم تعقلون) آل عمران -١١٨-

قال ابن عباس ومجاهد: نزلت في قوم من المؤمنين، كانوا يصافون المنافقين ، ويواصلون رجالا من اليهود لما كان بينهم من القرابة ، والصداقة والجوار ، والرضاع ، والحلف ، فنهوا عن مباطنتهم (١).

والبطانة: الصاحب للسر الذي يشاور في الأحوال.

و (من دونكم) : أي من غير المسلمين.

و الألو: التقصير في الأمر ، أي لا يقصرون في إفسادكم.

والخبال: الفساد.

و(ودوا ما عنتم) أي تمنوا عنتكم، والعنت : شدة الضرر والمشقة .

وقوله تعالى(قد بدت البغضاء من أفواههم) قال ابن عباس : أي قد ظهر لكم منهم الكذب والشتم ومخالفة دينكم.

وقوله (قد بينا لكم الآيات) أي دلائل سوء نوايا هذه البطانة .

---

١) انظر زاد المسير ٤٤٦/١.

وقوله(إن كنتم تعقلون) فيه حث على استعمال العقل في تأمل هذه الآيـات وتدبر الأمور.

روى ابن أبي حاتم انه قيل لعمر بن الخطاب رضي الله عنه: إن ها هنا غلامـا من أهل الحيرة نصرانيا ، حافظ كاتب ، فلو اتخذته كاتبا؟ فقال : قد اتخـذت إذن بطانة من دون المؤمنين([1]).

وقال أبو يعلى : وفي هذه الآية دلالة على أنه لا يجوز الاستعانة بأهل الذمة في أمور المسلمين من العمالات والكتبة.

ولهذا قال احمد : لا يستعين الأمام بأهل الذمة على قتال أهل الحرب ([2]).

وذكر ابن كثير الأثر عن عمر ثم قال : (ففي هذا الأثر مع هذه الآية دلالة على أن أهل الذمة لا يجوز استعمالهم في الكتابة، التي فيها استطالة علـى المسـلمين ، واطلاع على دواخل أمورهم، التي يخشى أن يفشـوها إلى الأعـداء مـن أهـل الحرب)([3]) .

وقال الكيا الهراسي: (في الآية دلالة على أنه لا يجوز الاستعانة بأهل الذمـة في شئ من أمور المسلمين من العمالات والكتابة) ([4])

قال سيد قطب رحمه الله (وما من شك أن هذه الصورة التي رسمهـا القـرآن الكريم هذا الرسم العجيب ، كانت تنطبق ابتداء على أهـل الكتـاب المحـاورين للمسلمين في المدينة ، فنرسم صورة قوية للغيظ الكظيم الذي كـانوا يضـمرونه للإسلام والمسلمين ، وللشر المبيت، وللنوايا السيئة التي تجيش في صـدورهم ، في

---

[1]) تفسير ابن كثير ٨٩/٣.
[2]) زاد المسير ٤٤٧/١.
[3]) تفسير ابن كثير ٨٩/٣.
[4]) احكام القرآن للكيا الهراسي ٦٨/٢.

الوقت الذي كان بعض المسلمين ما يزال مخدوعا في أعداء الله هؤلاء ، وما يـزال يفضي إليهم بالمودة ، وما يزال بأمنهم على أسرار الجماعة المسلمة ، ويتخذ منهم بطانة وأصحابا وأصدقاء، لا يخشى مغبة الإفضاء إليهم بدخائل الأسرار ، فجـاء هذا التنوير ، وهذا التحذير ، يبصر الجماعة المسلمة بحقيقة الأمر ، ويوعيها لكيـد أعدائها الطبيعيين ، الذين لا يخلصون لها أبدا ، ولا تغسل أحقـادهم مـودة مـن المسلمين وصحبة ،ولم يجئ هذا التنوير وهذا التحذير ليكون مقصوراً علـى فتـرة تاريخية معينة ، فهو حقيقة دائمة، تواجه واقعا دائما ، كما نرى مصداق هذا فيما بين أيدينا من حاضر مكشوف مشهود...) ([1])

المبحث الثاني : عداوتهم وإيذاؤهم للمسلمين

قوله تعالى(قل يا أهل الكتاب هل تنقمون منا إلا أن آمنا بالله وما أنزل إلينا وما انزل من قبل وأن أكثركم فاسقون)المائدة –٥٩–.

وصفوا بأهل الكتاب تمهيدا لما سيأتي من تبكيتهم وإلزامهم بكفرهم بكتابهم.

قال سيد قطب رحمه الله : (إن هذا السؤال الذي وجه الله رسوله إلى توجيهه لأهل الكتاب ، هو من ناحية سؤال تقرير لإثبات ما هو واقع بالفعل منهم، وكشف حقيقة البواعث التي تدفع بهم إلى موقفهم من الجماعة المسلمة ودينها وصلاتها ، وهو من ناحية سؤال استنكاري ، لاستنكار هذا الواقع منهم، واستنكار البواعث الداعية عليه.

وهو في الوقت ذاته توعية للمسلمين ، وتنفير لهم من موالاة القوم) ([2])

---

[1]) في ظلال القرآن ٤٥٢/١.
[2]) في ظلال القرآن ٩٢٣/٢.

ومعنى (تنقمون) أي تعيبون وتنكرون.

قال أبو السعود: (أي ما تنقمون منا ديننا لعلل من العلل إلا لأنا آمنا بالله ، وما أنزل إلينا ، وما أنزل من قبل من كتبكم ، ولأن أكثركم متمردون غير مؤمنين بواحد مما ذكر ، حتى لو كنتم مؤمنين بكتابكم الناطق بصحة كتابنا لأمنتم به ، وإسناد الفسق إلى أكثرهم، لأنهم الحاملون لأعقابهم على التمرد والعناد) ([1])

وقال سيد قطب رحمه الله : (إن أهل الكتاب ... يعادون المسلمين، لأنهم مسلمون ، لأنهم ليسوا يهودا ولا نصارى ، ولأن أهل الكتاب فاسقون، منحرفون عما أنزله الله إليهم ..، إنهم يحاربون المسلمين هذه الحرب الشعواء، التي لم تضع أوزارها قط ، ولم يخب أوارها طوال ألف وأربعمائة عام ...، إنهم يشنون على المسلمين هذه الحرب المشبوبة لأنهم –قبل كل شئ– مسلمون ، ولا يمكن أن يطفئوا هذه الحرب المشبوبة إلا أن يردوا المسلمين عن دينهم فيصبحوا غير مسلمين، ذلك لأن أهل الكتاب أكثرهم فاسقون، ومن ثم لا يحبون المستقيمين الملتزمين من المسلمين..، فالفسق يحمل صاحبه على النقمة من المستقيم، وهي قاعدة نفسية واقعية ، تثبتها هذه اللفتة القرآنية العجيبة، إن الذي يفسق عن الطريق وينحرف لا يطيق أن يرى المستقيم على النهج الملتزم ..، إنها قاعدة مطردة تتجاوز موقف أهل الكتاب من الجماعة المسلمة في المدينة، إلى موقف أهل الكتاب عامة من المسلمين عامة، إلى موقف كل فاسق منحرف من كل عصبة ملتزمة مستقيمة..، هذه الحرب أمر طبيعي يستند إلى هذه القاعدة التي يصورها النص القرآني العجيب.

---

[1]) تفسير ابى السعود ٥٤/٣.

ولقد علم الله سبحانه أن الخير لابد أن يلقى النقمة من الشر، وأن الحق لابد أن يواجه العداء من الباطل ، وأن الاستقامة لابد أن تثير غيظ الفساق ، وأن الالتزام لابد أن يجر حقد المنحرفين. وعلم الله سبحانه أن لابد للخير والحق والاستقامة والالتزام أن تدفع عن نفسها، وأن تخوض المعركة الحتمية مع الشر والباطل والفسق والانحراف، وأنها معركة لا خيار فيها ، ولا يملك الحق إلا أن يخوضها في وجه الباطل، لأن الباطل سيهاجمه، ولا يملك الخير أن يتجنبها ، لأن الشر لابد سيحاول سحقه.

وغفلة –أي غفلة– أن يظن أصحاب الحق والخير والاستقامة والالتزام أنهم متروكون من الباطل والشر والفسق والانحراف، وأنهم يملكون تجنب المعركة، وأنه يمكن أن تقوم هناك مصالحة أو مهادنه، وخير لهم أن يستعدوا للمعركة المحتومة بالوعي والعدة من أن يستسلموا للوهم والخديعة ، وهم يومئذ ماكولون ماكولون)([1])

قال تعالى: (لتجدن اشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا وأنهم لا يستكبرون) المائدة-٨٢-.

لما ذكر سبحانه من أحوال أهل الكتاب من اليهود والنصارى ما ذكره ، ذكر في هذه الآية أن اليهود في غاية العداوة من المسلمين ، ولذلك جعلهم قرناء للمشركين في شدة العداوة، بل نبه على أنهم أشد عداوة من المشركين ، من جهة أنه قدم ذكرهم على ذكر المشركين ، وذكر سبحانه أن النصارى الين عريكه من

---

[1]) في ظلال القرآن ٩٢٦/٢.

اليهود ،واقرب إلى المسلمين منهم ، وبين سبحانه السبب في ذلك في قوله (ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا وأنهم لا يستكبرون ، وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق يقولون ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين ، ومالنا لا نؤمن بالله وما جاءنا من الحق ونطمع أن يدخلنا ربنا مع القوم الصالحين ، فأثابهم الله بما قالوا جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك جزاء المحسنين) —المائدة، الآيتان ٨٣-٨٤-.

والقسيس : هو عالم دين النصرانية.

والراهب من النصارى هو المنقطع في دير أوصومعه للعبادة.

فوجود هذه الطائفة من النصارى تقلل العداء بين النصارى والمسلمين وهذه الطائفة متصفة بصفات:

١- علماء بدين النصرانية وعباد.

٢- لا يستكبرون عن قبول الحق ، فهم متواضعون منصفون.

٣- إذا سمعوا القرآن ذرفت أعينهم بالدمع لما عرفوا من الحق كما فعل النجاشي وأصحابه حينما قرأ عليهم جعفر الطيار سورة مريم فبكوا ، واخذ النجاشي تبنة من الأرض وقال: والله ما زاد على ما قال الله في الإنجيل مثل هذا.

٤- لا يكتفون بمجرد البكاء ، ثم يستمرون على عدم الإيمان بالرسول الخاتم، بل يخضعون وينقادون إلى الحق ، وينطقون بملء أفواههم: (ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين) أعلنوا الإيمان بما جاءهم من الحق ، وبادروا إلى الانضمام والتصديق ببعثة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وطلبوا من الله

أن يكونوا من أمة محمد الذين يشهدون بالحق على الأمم ، وأن يدخلهم ربهم في زمرة الصالحين المستحقين للجنة.

٥- إن من يعلن إيمانه ، وينضم إلى المسلمين يجد عنتا ومشقة ولو من السفهاء ، فلا يصده ذلك عن الاستمرار في الحق ويردون على السفهاء بقولهم(ومالنا لا نؤمن بالله وما جاءنا من الحق ونطمع أن يدخلنا ربنا مع القوم الصالحين) أي ما الذي يمنعنا عن الإيمان ويصدنا عن اتباع الحق وقد ظهر لنا الصواب ، وتبين لنا الحق المنير. قال أبو حيان : (هذا إنكار واستبعاد لانتفاء الإيمان منهم مع قيام موجبه، وهو عرفان الحق) ([1])

٦- النتيجة لهذه الطائفة التي أعلنت تمسكها بالحق وثبتت عليه رغم ما لاقته من عنت ومشقة: (فأثابهم الله بما قالوا جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك جزاء المحسنين) والإحسان أعلى درجات الإيمان والإسلام.

فإذا وجدت هذه الطائفة في صفوف النصارى لاشك أنها تؤثر على مجموع النصارى في تخفيف العداء للمسلمين ، وذلك لأن العامة تتأثر بعلمائها العاملين ، وبعبادها الصادقين.

حتى ولو لم توجد هذه الطائفة فان تعاليم الإنجيل تجعل في قلوب اتباعها الرقة والرأفة ، وليس القتال مشروعا في ملتهم، وفي كتابهم: من ضربك على خدك الأيمن فأدر له خدك الأيسر، والإيذاء في دينهم حرام ([2]).

أما ما يفعله النصارى اليوم من الاعتداء والظلم والجور في الأرض ، فليس بحسب دينهم ، وإنما بحسب دين اليهود المحرف ، الذي يوجب عليهم إيصال الشر

---

[1]) البحر المحيط ٦/٤.
[2]) انظر تفسير ابن كثير ١٥٨/٣ ، والفخر الرازي ٦٦/١٢.

إلى من يخالفهم في الدين ، بأي طريق كان ، فان قدروا على القتل فذاك ، والا فبغصب المال أو بالسرقة ، أو بنوع من المكر والكيد والحيلة. (١)

فهم استطاعوا بمكرهم وكيدهم أن يبعدوا النصارى عن تعاليم الإنجيل وان يرموا بهم في المهالك ، ليحققوا لهم شهواتهم ، وحقدهم وكيدهم ومكرهم على الآخرين ، فاصبح النصارى لعبة بأيديهم يرمون بهم حيث ما أرادوا ، كالكرة بيد الصبيان.

وبهذه السياسة اليهودية ، وغياب الفريق المنصف من النصارى ،أو عدم تأثيره على الساحة الدولية أصبحت مودة النصارى معدومة، أو شبه معدومة ، ولا يعفي ذلك المسلمين عن تقصيرهم في واجبهم نحو النصارى بتعريفهم بالإسلام وبتحذيرهم من دسائس اليهود.

قال تعالى (لتبلون في أموالكم وأنفسكم ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيرا وإن تصبروا وتتقوا فإن ذلك من عزم الأمور)آل عمران-١٨٦-.

الابتلاء : الاختبار . أي لتختبرن في أموالكم بما يصيبها في نفقات الجهاد، وأخذ الأعداء لها، كما حصل للمهاجرين من مكة عندما هاجروا وتركوا أموالهم فيها، والابتلاء بالأنفس : هو القتل والجراح والأسر والسجن ونحو ذلك.

مما يرد عليها من أصناف المتاعب ، والمخاوف والشدائد.

وقد أكد الفعل بلام القسم ، وبنون التوكيد الشدّدة ، لإفادة تحقيق الابتلاء.

قوله (ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيرا)

---

١) انظر الفخر الرازي المرجع السابق.

(ولتسمعن) معطوف على ما قبله فهو أخذ حكمه في التأكيد ، وهـذا الأذى بالقول ، سواء كان في حال الحرب أو السلم . ونكـر المفعـول (أذى) لإفـادة العموم، ووصفه بالكثرة أيضا . أي الخارج عن الحد الذي تحتمله النفوس.

والأذى بالقول يختلف باختلاف الأماكن والأزمان.

فانظر الآن مثلا إلى وسائل الإعلام التي يسيطر عليها اليهود والنصارى كيـف تؤذى المسلمين بالقول . تصفهم بالإرهاب ، والأصوليين والمتشددين ، ونحو ذلك من الأوصاف التي تحلو لها. وهذا الابتلاء المذكور مـن المصـائب في الأمـوال ، والأنفس والأعراض يدفعه عن المسلمين بعون الله أمران:

١- الصبر على أقدار الله المؤلمة.

٢- التقوى وهي فعل ما أمر الله به وترك ما نهى عنه فلابد من هذين الأمرين لانهما مما يجب أن يعزم عليه المسلم.

قال سبحانه (وإن تصبروا وتتقوا فإن ذلك من عزم الأمور) والعـزم هنـا : الصبر على فعل الخيرات وترك المنهيات بثقة وثبات .

المبحث الثالث: استحلالهم لأموال المسلمين

قوله تعالى(ومن أهل الكتاب من إن تأمنه بقنطار يؤده إليك ومنهم من إن تأمنه بدينار لا يؤده إليك إلا ما دمت عليه قائما ذلك بأنهم قالوا ليس علينا في الأميين سبيل ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون بلى من أوفى بعهده واتقى فإن الله يحب المتقين)آل عمران- ٧٥-٧٦-.

الآية دالة على انقسامهم إلى قسمين ، بعضهم أهل الأمانة ، وبعضـهم أهـل الخيانة وفيه أقوال:

١- أن أهل الأمانة منهم ، هم الذين اسلموا ، أما الذين بقوا على اليهودية فهم مصرون على الخيانة، لأن مذهبهم أنه يحل لهم قتل كل من خالفهم في الدين وأخذ أموالهم.

٢-أن أهل الأمانة هم النصارى ، وأهل الخيانة هم اليهود، والدليل عليه أن مذهب اليهود يحل قتل المخالف ويحل أخذ ماله بأيّ طريق كان.

٣-ذكر ابن عباس أن رجلا أودع عند عبد الله بن سلام ألفا ومائتي أوقية من ذهب فأدى إليه ، وأودع آخر فنحاص بن عازوراء دينارا فجحده فنزلت الآية) (١)

٤-ذكر ابن عاشور أن الذم لجميعهم أمينهم وخائنهم ، لإنه إذا كان دينهم حسب زعمهم يبيح لهم خيانة غيرهم ، فالأمين حينئذ لا مزية له ، لأن فعله من باب التغالي في المباح(٢).

٥-إن هذا أنصاف للفريق الأمين ، لأن الإنصاف مما اشتهر به الإسلام.

٦-قلت: ويحتمل قول سادس ، وهو أن من وصف منهم بالأمانة ولو لم يسلموا على اعتبار المعاملة التجارية ، وتحقيق الربح المادي ، لإنهم لو لم يتصفوا بها لخسرت تجارتهم ، وفلست شركاتهم . ولا تنافى بين هذه الأقوال والله أعلم .

والقنطار : هو ما يزن مائة رطل من الفضة.

وقيل : ألف ومئتا أوقية من الذهب.

والدينار: وزنه اثنتان وسبعون حبة من الشعير المتوسط.

---

١) انظر الفخر الرازي ١٠٠/٧.
٢) تفسير التحرير والتنوير لابن عاشور ٢٨٤/٣.

وقد جعل القنطار والدينار مثلين للكثرة والقلة.

ومعنى قوله (مادمت عليه قائما) أي ملحا ومتابعا ومطالبا.

قوله تعالى(ذلك بأنهم قالوا ليس علينا في الأميين سبيل)

أي فعلوا الخيانة ، لأنهم قالوا لا حرج ولا إثم علينا في اخذ أموال الأميين ومرادهم بالأميين : قيل العرب ، وقيل :كل من ليس من أهل الكتاب.

قوله تعالى(ويقولون على الله الكذب) أي يكذبون على الله بقولهم : قد أحل الله لنا أموال العرب ، أو أموال من ليس على ديننا.

(وهم يعلمون) أنه كذب محض ، وافتراء ، لتحريم الغدر والخيانة عليهم ، كما هو في التوراة.

قوله (بلى من أوفى بعهده واتقى فان الله يحب المتقين) أي ليس الأمر كما زعموا ، بل عليهم فيه إثم لكن من أدى الأمانة منهم، وآمن بمحمد صلى الله عليه وسلم وأحبه، واتقى الله بامتثال أوامره واجتناب محارمه ، فان الله يحبه ويكرمه ، ولا محبه ولا كرامه لمن لا يتصف بتلك الصفات.

قوله تعالى(يا أيها الذين آمنوا إن كثيرا من الأحبار والرهبان ليأكلوا أموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب اليم)التوبة-٣٤-.

الكثير من الأحبار والرهبان يأكلون أموال الناس بالباطل وهم يعلمون أنه باطل.

والباطل يشمل وجوها كثيرة منها: الرشوة ، ومنها تغيير الأحكام الدينية لموافقة أهواء الناس ومنها بيع صكوك الغفران ،ومنها الربا ، ومنها جحد الأمانات، وغير ذلك من الأساليب المتعددة ، والصور المتنوعة.

((ويصدون عن سبيل الله)) أي عن الطريق إليه وهو دين الإسلام وعن الإيمان بمحمد ﷺ وعما كان حقا في شريعتهم قبل نسخها بسبب أكلهم لأموال الناس بالباطل. (١)

المبحث الرابع : تعاونهم مع المشركين في الحرب ضد المسلمين

قوله تعالى(وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصيهم وقذف في قلوبهم الرعب فريقا تقتلون وتأسرون فريقا)الأحزاب —٢٦-.

هذه الآية لها ارتباط بما قبلها وما بعدها ، وهي جميعها تتحدث عن غزوة الأحزاب.

وسبب تلك الغزوة أن نفرا من أشراف بني النضير الذين كانوا قد أجلاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم من المدينة إلى خيبر بعد نقضهم للعهد ، ومحاولتهم لاغتيال النبي ﷺ، وقد كانوا يستحقون عقوبة الإعدام ، لكن الرسول ﷺ اكتفى بنفيهم إلى خيبر ، ومصادرة بعض متطلبات هؤلاء الأشراف من اليهود . ومنهم سلام بن أبي الحقيق ، وسلام بن مشكم ، وكنانه بن الربيع خرجوا إلى مكة واجتمعوا بأشراف قريش وألبوهم على حرب الرسول ﷺ ووعدوهم من انفسهم النصر والإعانة، فأجابوهم إلى ذلك ، ثم خرجوا إلى غطفان فدعوهم ، فاستجابوا

---

١) فتح البيان في مقاصد القرآن للعلامة صديق حسن خان ٥/ ٢٩٢.

لهم أيضا ، وخرجت قريش في أحابيشها ومن تابعها، وقائدهم أبو سفيان صخر بن حرب وعلى غطفان عيينة بن حصن،والجميع قريب من عشرة آلاف ، وكانت بنو قريظة –وهم طائفة من اليهود- لهم حصن شرقي المدينة ،ولهم عهد مع النبي ﷺ وذمة ، وهم قريب من ثمانمائة مقاتل ، فذهب إليهم حيي بن أخطب النضيري فلم يزل بسيدهم كعب بن أسد حتى نقضوا العهد ، ومالئوا الأحزاب على رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما بلغ الرسول نقضهم العهد ساءه ذلك ، وعظم الخطب واشتد الأمر وضاق الحال ، كما قال الله تعالى (هنالك ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديدا) ([1])

فلما أيد الله المؤمنين ، وكبت الأعداء من قريش وغطفان وردهم خائبين ، وكفى الله المؤمنين القتال ، رجع النبي ﷺ إلى المدينة منصورا،ووضع الناس السلاح، فبينما رسول الله ﷺ يغتسل من وعثاء المرابطة – في بيت أم سلمة رضي الله عنها- إذ تبدى له جبريل عليه السلام فقال : أوضعت السلاح يا رسول الله ؟ قال ﷺ : (نعم) قال : ولكن الملائكة لم تضع أسلحتها، وهذا أوان رجوعي من طلب القوم، ثم قال : (إن الله تبارك وتعالى يأمرك أن تنهض إلى بني قريظة) وكانت على أميال من المدينة، وذلك بعد صلاة الظهر وقال ﷺ :(لا يصلين أحدكم العصر إلا في بني قريظة) فسار الناس في الطريق ، فأدركتهم الصلاة في الطريق ، فصلى بعضهم في الطريق ، وقالوا : لم يرد الرسول صلى الله عليه وسلم إلا تعجيل المسير ، وقال آخرون: لا نصليها إلا في بني قريظة ، فلم يعنف الرسول واحدا من الفريقين.

---

[1]) الآية ١١ من سورة الاحزاب.

وتبعهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وحاصرهم خمساوعشرين ليلة، فطلبوا أن ينزلوا على حكم سعد بن معاذ سيد الأوس ، لأنهم كانوا حلفاءه في الجاهلية ، فاستدعاه الرسول ﷺ وقال(إن هؤلاء قد نزلوا على حكمك ، فاحكم فيهم بما شئت) فقال رضي الله عنه : وحكمي نافذ عليهم ؟ قال ﷺ : (نعم) فقال رضي الله عنه : إني أحكم أن تقتل مقاتلتهم ، وتسبى ذريتهم وأموالهم ، فقال رسول الله ﷺ: (لقد حكمت بحكم الله تعالى من فوق سبعة أرقعة) أي سماوات – ونفذ الحكم الذي حكم به سعد بطلب من بني قريظة ، قال محمد أحمد باشميل : (ولم يكتف بنو قريظة بنقض العهد وإلغاء الحلف الذي بينهم وبين المسلمين ، بل سارعوا إلى وضع أيديهم في أيدي الغزاة ، الأمر الذي ضاعف من محنة المسلمين وزاد من كربهم..، وكم هو فظيع أن ترى من حليفك قد انحاز إلى أعدائك الغزاة، واشهر السلاح ليضربك به من الخلف في الوقت الذي تتوقع فيه أن يكون واقفا بهذا السلاح إلى جانبك لصد العدوان عليك ، كحليف يزن كلمته التي أعطاها بميزان الشرف ، ولكنهم اليهود وكفى) (١)

ولهذا قال : (وأنزل الذين ظاهروهم) أي عاونوا الأحزاب وساعدوهم على حرب النبي صلى الله عليه وسلم.

(من أهل الكتاب) يعني بني قريظة ، وهم طائفة من اليهود لهم حصن في شرقي المدينة، وكان الرسول صلى الله عليه وسلم على عهد معهم وذمة، ينص هذا العهد بأن يلتزم الفريقان معا بواجب الدفاع عن المدينة، ضد أي عدوان خارجي ضد أي

---

١) غزوة خيبر صـ١٨.

منهما، كما ينص على عدم اعتداء أحد الفريقين على الآخر. قوله (من صياصيهم) أي حصونهم.

وقذف في قلوبهم الرعب) أي الخوف ، جزاء وفاقا.

قال ابن كثير: (لأنهم كانوا مالأوا المشركين على حرب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وليس من يعلم كمن لا يعلم ، فأخافوا المسلمين ، ورأموا قتلهم ليعزوا في الدنيا ، فانعكس عليهم الحال، وانقلب إليهم الفال، لما انشمر (١) المشركون ، وراحوا الصفقة المغبون ، فكما راموا العز ذلوا، وأرادوا استئصال المسلمين فاستؤصلوا وأضيف إلى ذلك شقاوة الآخرة ، فصارت الجملة أن هذه هي الصفقة الخاسرة. ولهذا قال: (فريقا تقتلون وتأسرون فريقا) فالذين قتلوهم هم المقاتلة ، والأسرى هم الأصاغر والنساء) (٢)

قوله تعالى(وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم وأرضا لم تطأوها وكان الله على كل شئ قديرا) سورة الأحزاب الآية ٢٧- يعني عقارهم، ونخيلهم ومنازلهم.

(وأموالهم) من الذهب والفضة والحلي والعبيد والإماء.

(وأرضا لم تطأوها) أي لم تطأوها بأقدامكم بعد وهي مما سنفتحها عليكم . ويدخل في ذلك كل ما فتحه المسلمون من فارس ، والروم ، ومكة وكل ما ظهر عليه المسلمون إلى يوم القيامة.

---

١) انشمر : أي اسرعوا راجعين الى مواطنهم.
٢) تفسير ابن كثير ٣٩٩/٦.

قوله تعالى(وكان الله على كل شئ قديرا) هذا التعقيب يناسب مع ما سبقه من النصر ، وقد اسند سبحانه النصر الى نفسه في تلك المعركة كلها ، تثبيتنا للمسلمين، وتطمينا لنفوسهم ليستيقنوا حقيقة النصر ، وأنه من عند الله سبحانه.

قلت : وما أشبه التحالف اليوم ضد الإسلام والمسلمين الذي تدفعه إسرائيل تحت راية أمريكا بالتحالف الذي حرض عليه اليهود بالأمس للقضاء على الإسلام في المدينة ، ونحن على ثقة من نصر الله لعباده المؤمنين في كل زمان ومكان.

المبحث الخامس : تعاون اليهود مع المنافقين في الحرب ضد المسلمين

قال تعالى : (إن الذين ارتدوا على أدبارهم من بعدما تبين لهم الهدى الشيطان سول لهم وأملى لهم ذلك بأنهم قالوا للذين كرهوا ما نزّل الله سنطيعكم في بعض الأمر والله يعلم إسرارهم) محمد الآيتان ٢٥-٢٦-.

وقال سبحانه ((الم تر إلى الذين تولوا قوماً غضب الله عليهم ماهم منكم ولا منهم ويحلفون على الكذب وهم يعلمون . أعد الله لهم عذاباً شديداً إنهم ساء ما كانوا يعملون)) المجادلة الآيتان ١٤-١٥.

وقال تعالى : ((ألم تر إلى الذين نافقوا يقولون لإخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب لئن أخرجتم لنخرجن معكم ولا نطيع فيكم أحداً أبداً وإن قوتلتم لننصرنكم والله يشهد إنهم لكاذبون لئن أخرجوا لا يخرجون معهم ولئن قوتلوا لا ينصرونهم ولئن نصروهم ليولن الأدبار ثم لا ينصرون)) الحشر الآيتان ١١-١٢.

فالذين ارتدوا على أدبارهم هم المنافقون . والذين كرهوا ما أنزل الله : هم اليهود وفي سورة المجادلة بين الله سبحانه أن المنافقين يتولون قوماً غضب الله عليهم . والمغضوب عليهم هم اليهود والتولي : المحبة والمودة والمناصرة ، وقد كان المنافقون يجالسون الرسول ﷺ ثم ينقلون حديثه وأسراره مع المؤمنين إلى اليهود . وهكذا نجد الخونة والعملاء لليهود في كل عصر من العصور يتعاونون معهم ضد المسلمين ولكن هذا التعاون مهما كان نوعه فعاقبته الذل والخزي لأصحابه في الدنيا والآخرة ، كما بين الله سبحانه ذلك في قوله ((أعد الله لهم عذاباً شديداً إنهم ساء ما كانوا يعملون)) وقوله سبحانه ((ولئن نصروهم ليولن الأدبار ثم لا ينصرون)) وغير ذلك من الآيات .

والمراد بالأخوة في قوله ((يقولون لإخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب .....)) أخوة الكفر ، والمحبة التي تجمع بينهم على مصالح مشتركة كما يرونها ، وهي في حقيقة أمرها تكون عليهم خزياً وندامة في الدنيا والآخرة

وهذا هو آخر البحث

والحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

مراجع البحث : ـ

١) جامع البيان عن تأويل القرآن لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري

٢) أحكام القرآن لعماد الدين محمد الطبري المعروف بالكيا الهراسي (ت٥٠٤هـ))

٣) زاد المسير في علم التفسير لأبي الفرج عبد الرحمن بن الجوزي (ت٥٩٦هـ).

٤) مفاتيح الغيب في تفسير القرآن . لفخر الدين محمد بن عمر بن الحسن الرازي (ت ٦٠٦هـ)

٥) تفسير القرآن، العظيم لأبي الفداء إسماعيل بن كثير (ت ٧٧٤هـ) .

٦) البحر المحيط : لأبي حيان محمد بن يوسف (ت ٧٥٤هـ) .

٧) إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم : لأبي السعود محمد بن محمد القمادي (ت ٩٥١هـ) .

٨) فتح البيان في مقاصد القرآن تأليف صديق حسن خان.

٩) التحرير والتنوير للشيخ محمد الطاهر بن عاشور .

١٠) في ظلال القرآن : للشهيد سيد قطب .

١١) صحيح مسلم : للإمام أبي الحسين مسلم بن الحجاج (ت ٢٦١هـ)

١٢) مجمع الزوائد : للحافظ نور الدين علي بن أبي بكر الهيثمي(ت ٨٠٧هـ)

١٣) غزوة خيبر : محمد أحمد باشميل .